المحاضرة التاسعة: الفنون النثرية الجزائرية الحديثة (تابع)

ثالثا- فن المقالة. رابعا- فن الرسالة

ثالثا: فن المقالة

تعريف المقالة أ- لغة: تعني القول من قولنا:" لكل مقام مقال".

ب- اصطلاحا: هي فن من الفنون الأدبية النثرية، وهي البحث القصير في الأدب أو السياسة أو الاجتماع...وتقدم للقارئ بطريقة مشوقة .

نشأتها: ارتبط ظهورها بظهور الصحافة وهي ثمرة من ثمار الاتصال بالآداب الأوروبية،انتقلت إلى الأدب العربي بظهور أول الصحف العربية ك(الوقائع المصرية 1828م،حديقة الأخبار البيروتية 1858م، الأهرام 1875 م).

جذورها في الأدب العربي: لا تتعدى العصر العباسي حيث نجد ما يشبه المقال في كتابات: ابن المقفع، الجاحظ،ابن قتيبة،وعبد الحميد الكاتب. فكتابات هؤلاء تشبه المقالة الحديثة في :تناول فكرة محددة، واستيفاء جميع جوانبها،والاستعانة بأدوات الإقناع كالتحليل والتعليل والتدليل وتختلف عن المقال الحديث في الطول، وافتقارها إلى خصائص المقال الحديث (مقدمة،عرض،خاتمة).

أولا: عوامل ظهور المقالة الأدبية وتطورها في الجزائر

عرفت الجزائر المقالة الأدبية منذ أن عرفت الصحف الوطنية الراقية التي اتخذت من اللغة العربية لسانا لهافي مطلع القرن العشرين. فقد ظهر كتاب بارعون نهضوا بالمقالة الأدبية، ولعل الذين طوروا فن المقالة في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين: قدور بن عمر، محمود كحول، وسعيد الزاهري، وعبد الحميد بن باديس، والطيب العقبي[1].

أما عن العوامل التي أدت إلى ظهور المقالة الأدبية في الجزائر، وتطورها حتى صارت قبل ثورة 1954 تضاهي أرقى المقالات الأدبية في أي قطر عربي آخر، فهي:

1- انتشار الصحافة العربية في الجزائر: ترعرعت المقالة الأدبية في الجزائر، ونمت أركانها في أحضان الصحافة التي فتحت المجال واسعاً أمام المبدعين الجزائريين لنشر أفكارهم وآرائهم بغير

---

[1]- ينظر: عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص84.

قيد، على الرغم ممّا كانت تتعرّض له من اضطهاد وحجر ومصادرة وتنكيل بكتّابها والمشرفين عليها. حيث لوحظ أن جل الأدباء والمثقفين الجزائريين نشطوا في تأسيس الصحف التي كانت في معظمها أسبوعية، والتي اتخذوا منها منابر حرة للتعبير عن آرائهم، ونشر أفكارهم بأسلوب أدبي راق، على الرغم من أن عين الاستعمار لا تنام ويده لا تنكمش عن أصحاب العربية، الأمر الذي عطل تطور هذا الفن و أعاق انتشاره. لكن الذين كانوا يناضلون بالكلمة عرفوا بالتحدي والثبات على المبدأ، والعناد. فكلما تعطلت صحيفة خرجت أخرى باسم مغاير...راجع أثر الصحافة في النهضة الشعرية.

2- حب التعبير عن الرأي: "كان الكتاب الذين يحيون في هذه الفترة، ينفعلون كالبراكين المشحونة بالحمم. فما هو إلا أن يجيش في أنفسهم شيء من الأشياء ذات البال، أو يعتلج في صدورهم أمر من الأمور الجسام، وإذا أقلامهم تتحرك سيالة ماضية لا تلوي على شيء حتى تستكمل المقالة المدبجة أسبابها"[1]

وعلى الرغم من تعدّد موضوعات المقالة الأدبية وتشعبّها إلاّ أنها ظلّت تعالج قضيّة الجزائر بكلّ الأبعاد، التاريخية منها والسياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية، وذلك قصد التحرّر من أيّ شكل من أشكال السيطرة الأجنبية. حيث كان الكتاب الإصلاحيون خلال هذه الفترة ملتزمين بالقضايا الوطنية أشد الالتزام يتحمسون لكل ما له صلة بالحياة العامة، فيكتبون عنه.

3- الصراع الفكري بين المثقفين: كان الاختلاف في الشارب والتباين في الاتجاه هو مصدر هذا الصراع الفكري لأن المثقفين الجزائريين كانوا طبقتين أساسيتين مختلفتين "اتجاه محافظ يجنح إلى الاستعمار ويخلد إلى الدعة والراحة، ولو بالتفريط في ذات الكرامة الوطنية، واتجاه متحرر إصلاحي يميل إلى التعلق بأسباب السيادة ولا يضن في سبيل بلوغها بشيء، فكان الاتجاه الثاني مضطهدا يعاني صنوفا من العذاب، وألوانا من الإرهاق، ونشأ الصراع الفكري حركة أدبية خصبة في الجزائر، فظهرت المقالات ذات النفس الطويل والأسلوب الأنيق، والتحليل المنطقي العميق...فعدد ضخم جدا من المقالات كتب في دائرة الصراع الفكري الذي وقع بين الاتجاهين:

[1] - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص88.

الإصلاحي والصوفي أو بين التقدمي والمحافظ"[1]. وفي هذا السياق تدخل مقالات ابن باديس والإبراهيمي ومحمد السعيد الزاهري في الرد على الطرقيين.

4- صلة الكتاب والأدباء والمصلحين الجزائريين بالنهضة المشرقية، و اقتفاؤهم لأثر المشارقة إلى جانب الحركات السياسية و الإصلاحية التي لعبت دورها في هذه اليقظة الفكرية، الأمر الذي أسهم في أن تتعدد الأساليب وأن تظهر الأشكال الأدبية مثل المقال الذي يعالج مشاكل سياسية ثم إصلاحية ثم أدبية إصلاحية، ثم أدبية صرفة بحيث يمكن القول إن إيمان الكتاب بدور المقال في الحياة الأدبية و الفكرية والاجتماعية قد أسهم في انتشاره و ساعد على تطوره، فقد نشأ أولا و أخيرا في أحضان الحركة الإصلاحية التي كان كتابها يصدرون عن رؤية دينية إصلاحية، وينفعلون بما يكتبون ويعبرون عن مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه المجتمع و الحياة، و من ثمة بدأ المقال الإصلاحي يتجه إلى مخاطبة العاطفة والتأثير في الوجدان، ثم التعبير عن شخصية صاحبه.

ثانيا: اتجاهات المقالة الأدبية في الجزائر

يقسم الدكتور عبد المالك مرتاض اتجاهات المقالة الأدبية في الجزائر إلى عدة اتجاهات[2]:

1- الاتجاه الأدبي الذي عالج قضايا أدبية عامة وقدم تراجم ودراسات لشخصيات أدبية. ومن الذين برزوا في هذا المجال:أحمد رضا حوحو، أحمد بن ذياب، حمزة بوكوشة، عبد الوهاب بن منصور، عبد المجيد الشافعين برزوا خاصة في البصائر الثانية.

وعلى الرغم من تعدّد موضوعات المقالة الأدبية وتشعبّها إلاّ أنها ظلّت تعالج قضيّة الجزائر بكلّ الأبعاد، التاريخية منها والسياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية، وذلك قصد التحرّر من أيّ شكل من أشكال السيطرة الأجنبية.

وخاضت المقالة الأدبية في معظم الموضوعات، وتعلقت بأهم الأسباب التي كانت تشغل أذهان المثقفين في الجزائر وفي الوطن العربي بوجه عام. ومما شاع على أقلامهم في هذه الفترة: الموضوعات الأدبية والدينية الإصلاحية والاجتماعية والتاريخية والعلمية. فقد ابتعدوا عن

---

[1] - المرجع السابق، ص 89.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص 93-160.

الموضوعات الذاتية ولم يكونوا يعالجون إلا ما كان له علاقة بالحياة العامة[1]، أي ما كان له صلة وثقى بقضايا الشعب الجزائري والدفاع عنها والمطالبة بها، وأكّدت في مضمونها (المقالة) – وخاصة عند الإبراهيمي– معنى أساسياً كان أبرز المعاني الجوهرية في معركة الإصلاح وذلك بالدفاع عن الإسلام واللغة العربية والشخصية الوطنية، وترسيخ هذه المقوّمات في نفوس أبناء الجزائر الذين يحاربون الاستعمار ويتأهّبون للقيام بثورة عارمة ضده.

وسعت تلك المقالات إلى إقناع أفراد الأمة بأفكارها وموضوعاتها التي ارتكزت على الواقع لمعالجته وتغييره، وتحليل علاقة الإنسان بالوسط الاجتماعي بوصفها الإعداد المعنوي لكلّ عمران، فسلمت تلك الأفكار من التناقض وأدّت إلى نتائج ملموسة إذ تفهمّها القرّاء وتشبّعوا بها وعملوا على تغيير واقعهم.

والقارئ للمقالات حتّى وإن وجدها تعالج مصطلحات كالأدب أو دور الأديب في المجتمع، فإنّه يدرك أن الغرض من أفكارها هو وضعها في إطارها العلمي والاجتماعي لكي يتبنّاها الناشئة ولا يزيغوا عنها، فينفعوا بها الوطن، ويقاوموا الاستعمار بسلاح القلم في موازاة سلاح السيف.

ولقد تعددت الموضوعات بتعدّد اهتمام الفرد الجزائري، وتداخلت المجالات في العديد من المقالات، فكان بينها الانسجام والتكامل، ونشأ عنها قيام كلّ مجال بالوظيفة المنوطة به خدمة للغرض العام الذي يقصده الكاتب.

ويتجلّى في خطاب المقالة ألإقناعي مجال التاريخ المسخّر لخدمة الواقع والتخلّص من معاناته وويلاته، وهو مسخّر لبناء مستقبل فيه الأمل والحضارة والعمران وأرقى السلوكات والعلاقات والمعاملات. فالتاريخ له أثره الخصب في الإقناع وهو عنصر يستشهد بحوادثه وقصصه ليتخذ المتلقي العبرة ممّا فات، ويتهيّأ لما هو آت، "وتتمثّل الاستعانة به في البحث عن الحجج اليقينية التي تشكّل المادّة الاستدلالية للمقالة"[2].

ويلاحظ –أيضاً– أنّ المجال السياسي في مثل مقالة إلى "أبنائي الطلبة"[3] للإبراهيمي، يقوم بتبصير الطلبة بالوضعية العامّة للأمّة والمخاطر الاستعمارية التي تحيط بها، ويرتبط العنصر

---

[1] – ينظر: المرجع السابق، ص93.

[2] –عبد الحميد بوزوينة، بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1988، ص45.

[3] – محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ت)، ج2، ص215.

التاريخي بهذا المجال الذي وظف توظيفاً نفسياً على أساس كونه مجموعة حوافز تذلل الصعاب، أمام طلبة العلم الذين سيتّخذون أجدادهم العلماء نماذج حسنة يجمل تمثّلها.

والمقالة –السابقة– إصلاحية متضمنّة الأبعاد التاريخية، أقام فيها البراهين الدامغة على إمكانية العودة في القضايا الكبرى إلى العلماء، وكون أحوال الأمّة سيّئة راجعة إلى تهاونهم في هذا الواجب وعدم إسناد الأمر إليهم.[1].

2- الاتجاه الاجتماعي: الذي عني أصحابه بالقضايا الاجتماعية كإصلاح المفاسد وتقويم الاعوجاج والتربية والبغاء، اليتم، التشرد، التسول مشاكل الأسرة كالطلاق و الفقر والجهل والأمية والتخلف ومن الذين برزوا في هذا المجال: أبو عزيز بن عمر، أبو يعلى الزواوي، أحمد بن ذياب، الإبراهيمي، أحمد بن عاشور، وعمر العرباوي، وغيرهم في (البصائر الثانية).

3- الاتجاه السياسي: الذي عالج ما يتعلق بالسياسة الداخلية كقرار الثامن مارس المشؤوم، ومذبحة ثامن ماي، وقضايا سياسية مختلفة مثل فصل الدين عن الحكومة الفرنسية والحرية الدينية واللغة العربية والانتخابات. ومن أبرز كتاب هذا الاتجاه: عبد الحميد بن باديس، محمد البشير الإبراهيمي، فرحات عباس، أبو عزيز بن عمر (البصائر الثانية).

ومن قضايا السياسة الخارجية: قضية المغرب العربي، قضية فلسطين، أحداث العالم الإسلامي، العالم بوجه عام. ومن أوائل الكتاب: ابن باديس الإبراهيمي، أحمد توفيق المدني (البصائر الثانية).

4- المقالة الإصلاحية: ومن المواضيع التي عالجتها:الصراع بين المصلحين والطرقيين ومن الكتاب في هذا الاتجاه ابن باديس، الإبراهيمي، محمد السعيد الزاهري، فرحات بن الدراجي، حمزة بوكوشة (الشهاب، البصائر الأولى، البصائر الثانية).

5-المقالة الدينية: عني الكتاب الجزائريون بهذا النوع عناية فائقة وعلى رأسهم ابن باديس الذي كان ينشر كل شهر مقالا في الشهاب بعنوان (مجالس التذكير)، والإبراهيمي، والشيخ أحمد سحنون الذي كان يكتب مقالاته الدينية تحت عنوان رئيسي واحد هو: (منبر الوعظ والإرشاد) في جريدة البصائر الثانية[2].

---

[1] – ينظر: عبد الحميد بوزوينة، الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي، ص13.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص159

أما فيما يتعلق بالمقالة الصحفية وأشكالها واتجاهاتها في النثر الجزائري فهناك دراسة جامعية وافية بهذا الغرض[1] لذا نكتفي بالإشارة إلى أن المقالة الأدبية جاءت متأخرة عن المقال الصحفي.

و يمكننا أن نرصد نوعين من المقال:

ثالثا: الإطار الفني للمقالة

- مقدمة: يعمد فيها الكاتب إلى وضع القارئ في جو النص.

2- العرض: يبسط فيه أفكاره مستعينا بالأسلوب الموائم، معتمدا على الحجج والأدلة المناسبة.

3- خاتمة: وتختلف باختلاف موضوع المقالة فقد تكون انطباعا أو تنبيه على خطر، أو لفت نظر إلى حلول.

رابعا: الخصائص الفنية للمقالة عند زعماء الإصلاح

1- المنهجية الدقيقة والعرض المنطقي.

2- الجمع بين جمال الصياغة والتعبير عن الفكرة.

3-الرسالية: لم تكن مقالاتهم لغرض الإمتاع وإنما كانت التزاما بقضايا مجتمعهم وأمتهم.

4-السخرية الحادة

5- ظاهرة الاقتباس والتضمين.

6-اللهجة العنيفة عند المناقشة.

7-النزعة التعليمية[2]

وهي جوانب أساسية في بناء الخطاب لما تضمّنه من محاكمة عقلية تنزع نحو الإقناع وإحداث اليقين لدى المتلّقي حتّى يعلم أنّ مايقوله الكاتب لهو الصدق وكبد الحقيقة.

وهذه العناصر هي مقوّمات الخطاب لما لها من تأثير نفسيّ على القارئ، وتحدث الانفعال اللازم لديه، وقد تجتمع برمّتها أو يطغى واحد منها أو اثنان على سائر المقالة.

ولكن ما يلاحظ أن الأسلوب الحاد كان الصفة المميزة -في الغالب- للكتابات المقالية في الجزائر، ولا يعتقد أنّ الأدب العربيّ الحديث بوجه عام احتوى على هذا العنصر حين معالجة

---

[1]- محمد الصالح ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية من 1847 إلى1931، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الجزائر، فيها حديث واف عن نشأة المقالة الصحفية والعوامل التي أثرت فيها مع نماذج مختلفة لكتابها.

[2] - ينظر: عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص376.

الموضوع أو مناقشة الخصم وجداله ما احتواه أدب المقالة الجزائرية. وأشهر من يمثّل هذا الاتّجاه الإبراهيمي الذي كان "يرمي خصمه بألفاظ حداد كأنها شفرات ماضية أو شظايا محرقة"[1]. خاصة وأنّ اللغة كانت تسعفه بتعابير ملتهبة تذيب الحجر[2].

رابعا: فن الرسالة

أما الرسائل فمع أن دورها أقل بكثير من دور الخطب إلا أنها خدمت الأدب الجزائري الحديث بوجه من الوجوه في فترات معينة. و المعروف أن هذا اللون من النثر بدأ يزدهر في الأدب العربي منذ عصر التدوين و خاصة حين أنشئت المكاتبات الديوانية و اتسعت رقعة الخلافة العربية الإسلامية فكان لا بد من كتاب ينقلون أوامر الخلفاء إلى الولاة أو يشرحون شئون السياسة و الاجتماع، و من هنا بدأت العناية بالرسائل و أساليبها، فالكاتب فضلا عن أنه يعبر فيها عن موضوعه الخاص، فإنه يجتهد في أن يكون أسلوبه جميلا مؤثرا متماسكا في صيغه و محتواه بحيث تبرز فيه شخصيته و أصالته و طريقته الخاصة في التعبير و الإنشاء. و قد اشتهر في هذا المضمار كتاب بارزون أمثال (عبد الحميد الكاتب) و(ابن المقفع) و غيرهما، كما ظهرت المدارس الأدبية في النثر مثل مدرستي (القاضي الفاضل) و (ابن العميد) . وقد قيل:" بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد"[3].

و قد اتسمت كتابة الرسائل بخصائص معينة منها الملاءمة بين الموضوع و الأسلوب و العناية بالصياغة و بالسجع بوجه خاص و مراعاة الفواصل بهدف إحداث المتعة الأدبية أو إظهار البراعة اللفظية.

و لكن بعد هذا أصبحت الكتابة تكلفا في هذه الخصائص و مالت إلى إظهار البراعة اللفظية، كما كثر البديع بشتى أنواعه في أساليب الكتاب و تحجرت طرق البيان و تجمد الأدب العربي حتى بلغ نهايته في عصر الأتراك و من قبله من عصر ما يسمى بالانحطاط.

فن الرسالة في الأدب الجزائري الحديث: عندما احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م كانت هناك بقية من هذه الأساليب قد انحدرت من عصر الحكم العثماني، كما بقيت آثار من الثقافة العربية

---

[1] – ينظر: المرجع السابق، ص 378.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص378

[3] – ينظر: عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث، ص36.

الإسلامية الأمر الذي لا يمكن معه البحث عن أسلوب جديد بأتم معنى الكلمة، لفن الترسل في النثر الجزائري غير أن هناك رسائل تعطينا صورة عما وصل إليه هذا النثر طوال القرن الماضي من ضعف، و في الوقت نفسه فكرة عن مستواه من حيث الجودة الفنية أو عدمها و من حيث الندرة أو الكثرة، و يمكن التمييز بين اتجاهين في الرسائل من حيث الأسلوب[1]:

الاتجاه الأول هو الذي يبدي فيم الكاتب مشاعره و يعبر عن عواطفه كما تظهر فيه ثقافته و تمكنه من اللغة العربية و استيعابه لمفرداتها و أساليبها، و في الوقت ذاته يدل على تأثر الأديب بطرق القدامى في رسائلهم و خصائصهم الفنية دون أن تذوب شخصيته أو تختفي وراء ركام الألفاظ و العبارات المنمقة. بل إن روح الأديب المنشئ تظهر قوية جلية بالرغم من روح العصر و ضعف الأدب العربي في الجزائر في بداية الاحتلال.

و يمثل هذا الاتجاه (حمدان خوجة)* في رسالة تنسب له، و الواقع أن هذا الكتاب الجزائري اشتهر بالإنتاج في غير الأدب إذ كان يكتب في السياسة و مشاكلها و الأحداث التي عاصرها أثناء احتلال بلاده، و لكنه في هذه الرسالة التي كتبها لشيخه (سيدي علي بن محمد) من لندن حين سافر إليها نلمس جزالة في الأسلوب و هو يعبر له عن اعترافه بالجميل و يظهر وفاءه له و تعلقه به و شوقه إليه. و منذ البداية نلمس التقليد في خصائص هذا اللون من الأدب، فالكاتب يبدأ رسالته بالحمد و الصلاة على الرسول ثم يوجه الخطاب إلى شيخه يمدحه و يشيد بفضله عليه، كما يصف علمه و تدينه و تقاه، و كالعادة في ذلك الوقت فإن العالم أو الأديب يمدح بمدى قدرته على فهم الشريعة و إدراك (الحقيقة) التي هي التبحر في التصوف يقول (حمدان خوجه).

" الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه سلم.سعدتُ إذ سعدت بك الخليقة،واستترت إذ كنت مظهر أنوار الشريعة والحقيقة،وقابلك باليمن دهر ختم بمعاليك كمالاته ،وواجهك سعد السعود إذ توجك أنفس هالاته،فكنت يمين اليمين والبركة،وقدوة السكون والحركة،تنثال لديك طرائف المعارف فتقتبس ،وتنتمي إليك معاقد المعالي فلا ترام ، ولا تختلس

---

[1] – عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث، ص37.

*– ولد سنة 1773 ودرس القانون ،سافر إلى أوروبا وهو شاب ،كما سافر إلى الشرق الأدنى مما ساعده على تكوين ثقافته وشخصيته السياسية،لعب دورا كبيرا في الحياة السياسية عند بداية الاحتلال ،أدت إلى نفيه إلى باريس ،له مؤلفات أهمها:المرأة.توفي اسطنبول بين1840–1845.

حتى أيقنت الأفاضل بأنك مدار الشرف ،واذعنت الأعادي بسعادة كونك بقية السلف،الأمين على السر المصون،حامل لواء الإمارة من العلم المكنون،تاج الملة الحنيفية ومجدد تاجها، نتيجة الهمم العالية، ومادة نتاجها"[1].

ومن خصائص هذه الرسالة:

1- طغيان السجع من بدايتها إلى نهايتها، واختيار الكاتب للغة والموازنة جمله وتعابيره.

2- أن المدح بالشريعة يقترن ذكره بالحقيقة ،ولكن الكاتب يرى في شيخه مجددا للدين ،حافظا لسره، فهو لا يمدحه بالعلم وحده،ولكن يمدحه بأنه من السلف المجدد للملة الحنيفية.

3- ضرب المثل من حكمة أو موعظة أو أبيات شعرية،وهذه سمة في النثر العربي عامة، حيث يعمد الكاتب إلى الشعر لإظهار البراعة والتأثير في النفس.لذلك نجد حمدان خوجة ينشئ أبياتا يعبر فيها عن شوقه لشيخه،واعترافه بفضله.

4- عناية الكاتب بسائر البديع كالجناس والطباق ،وهذا اللون يحدث اللذة الدبية حين يكون عفويا ،ولكنه لايحقق التأثير المطلوب حين يكون متكلفا.

5- توظيف البيان أحيانا فثبات قدرة الكاتب ومعرفته بالبلاغة العربية،والنص السابق يؤكد ذلك.كما تؤكده هذه الفقرة من الرسالة:

" ...فإن أحسنت بعض الإحسان فإنه لعموم محاسنه،وإن أفصحت عن معنى بديع فإنما هو من نحت معادنه،وإن رجعت إلى الأصل وتبوأت مقاعد الجهل،فلا أقل من رمق يسترد،وشوق يستجد، وهمة تستمد،ومناقب لا تحصى ولا تعد،وهل تستنكر الاستقامة من الزلل،وربما صحت الأجسام بالعلل." ص45 .

وهذا النموذج يمثل الرسالة الأدبية التقليدية التي يعنى فيها صاحبها بالصياغة الفنية،والبيان الناصع والتعبير الجميل،ما يؤكد أن فن الترسل في تلك المرحلة ما زال يحتفظ بقدر غير قليل من جمال الصياغة وطريقة الأداء.

ثانيا: الاتجاه الثاني هو الذي يعمد فيه الكاتب إلى البساطة و الوضوح دون قصد للجمال الأدبي و دون عناية كبيرة بالصياغة بحيث اختفى أسلوب السجع و البديع بشكل ظاهر، و طوعت فيه

[1] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، ص38.

اللغة للتعبير بسهولة و يسر و في بساطة تجعل منها أداة مرنة صالحة لصياغة المعاني الدقيقة و الأفكار العميقة.

و يتضح هذا الأسلوب في رسائل (الأمير عبد القدر) للقائد الفرنسي (بيجو) و لغيره من الحكام الفرنسيين أثناء مفاوضاته معهم طوال الفترة التي حمل فيها لواء المقاومة ضد المستعمرين . فهو في هذه الرسائل قد خطا بالنثر خطوة واسعة قد حرره فيها من الأسلوب و من الركاكة و التكلف و جعل منه وسيلة للتعبير عن الأفكار الحديثة التي غزت الحياة السياسية و الاجتماعية في تلك الفترة، إذ يشرح في رسائله موقفه من السلم و الحرب و ما يتصل بهما من ملابسات و معطيات.

وطريقة الأمير في رسائله أنه يهجم على موضوعه،أحيانا في إيجاز وأحيانا في تفصيل،ولكنه في كلتا الحالتين لا يكثر من المقدمات،وإنما يدخل مباشرة في الموضوع ،ويعبر عن رأيه دون تنميق أو زخرفة في القول،وهذا ما تنم عنه رسالته التي رد بها على الجنرال بيجو حين كتب إليه يعرض عليه الصلح[1]:

" أما بعد،فقد وصلني كتابكم وأحطت به علما،فذكرتم أن دولة فرنسا أمرتكم بإجراء الصلح–إن أمكن–وإلا فاستعمال السيف،مع أن دولة فرنسا عرف أنني أشد الناس رغبة في حصول العافية،وأشدهم بغضا لسفك الدماء بدون موجب شرعي،وإنها لتعلن إنني راغب في عقد الصلح وإقامة دعائمه،على أساس قوي لا يتضعضع، ويشهد لذلك ما خابرتها به على يد سفيرها في طنجة ،فإن ساعدت العناية الإلهية على إجراء هذا الأمر على يدكم ،فهو دليل على صفاء طويتكم لعباد الله تعالى،وصدق خدمتكم للدولة والشعب معا"[2].

من النص تتضح لنا طريق الأمير في كتابة الرسائل، فهو لا يحفل بالسجع ، وإن كان قد قلد القدامى في طريقة البدء، والتأثر بالدين، إلا أنه لا يتأنق غي التعبير، ولا يوغل في البحث عن الألفاظ الغريبة بل يعمد إلى البساطة والوضوح.

---

[1] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، ص41.

[2] – محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، دار اليقظة العربية، دمشق، سوريا، ط2، 1964، ص268.

أما من حيث المضمون، فإن الرسالة تعبر عن جنوح الأمير للسلم ،وكراهيته للحرب لوعيه بخطرها وأثرها، ويحث العدو على أن يسلك طريق العقل .

و إلى جانب هذين الاتجاهين وجد لون من الرسائل في أواخر القرن الماضي لا يرقى إلى أن يكون أدبا أو فنا لا من حيث الأسلوب و لا من حيث الموضوع و لا أيضا من حيث المحتوى، فالأسلوب ضعيف وشخصية الكاتب باهتة، و اللغة عادية متهافتة في أحيان كثيرة، كذلك فإن الموضوعات من نوع ما عرف بالإخوانيات أو الموضوعات الخاصة بأصحابها[1]. ويمثل هذا اللون رسائل (محمد الشاذلي القسنطيني).*

وهذه الرسائل في الواقع لا تدل على تفرد أو أصالة و ليس في أسلوبها ما يدعونا إلى الوقوف عندها فهي لا تسهم لا في المحافظة على صيانة البيان العربي و لا في تطور النثر الجزائري الحديث.

و قد تدهور أسلوب الرسائل بعد ذلك، أي في أواخر القرن الماضي، تدهورا ملحوظا بحيث لا نجد في هذه الفترة إلا نوعا من الرسائل كتبها بعض الجزائريين لا يهدف التعبير عن الذات أو الكشف عما في النفس، و إنما كتبت كقوالب محفوظة جاهزة يكتب على نسقها من وقعت له حادثة و يريد أن ينقلها إلى الإدارة مثلا، فهي رسائل للشكوى و التظلم أو لغير ذلك من الأمور العادية التي تحدث للناس يوميا[2].

أما في ظل الحركة الإصلاحية فقد استعاد هذا الفن كثيرا من أصالته فيما يخص اللغة و العبارة، أما من حيث الأسلوب و الطريقة فالواقع أن الرسائل أصبحت تميل إلى الوضوح و الدخول مباشرة في الموضوع كما يتضح فيما تحت أيدينا من رسائل قليلة مخطوطة مما كان يتبادله العلماء المصلحون في الثلاثينيات من هذا القرن، و أهمية هذا النوع من الرسائل تكمن في الموضوعات و الأفكار و القضايا التي شغلت رجال الحركة الإصلاحية و خاصة تلك التي تدعو إلى النهوض و إلى محاربة الأمية و تهتم بنشر التعليم و إصلاح المجتمع.وللاطلاع على أمثلة

---

[1] – عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص45.

* - عالم وشاعر جزائري ولد سنة 1807 بقسنطينة، عمل بها قاضيا حوالي عشرين عاما، وكان صديقا للأمير عبد القادر، توفي 1877.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص46.

من ذلك راجع : آثار عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، ومذكرات احمد توفيق المدني وغيرهم ، لعلك واجد فيها ضالتك.

على أنه يمكن القول بأن أسلوب الرسائل قد تطور في العصر الحاضر بالرغم من أن النصوص لا تساعد على حكم موضوعي، و إنما من بعض ما عثرنا عليه أدركنا أن الكتاب المعاصرين لا ينشرون رسائلهم و مكاتباتهم و لو نشرت لعثرنا على كنز من الأدب و المشاعر الإنسانية لأن الكتاب فيها يطلقون أنفسهم على سجيتها و يعبرون فيها على آرائهم و أفكارهم و عن قضايا كثيرة بلا حرج أو خوف أو بهرجة.[1]

[1] – عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص 47.